تداولية الرسائل الحربية
وقعة صفين مثالاً

م. د. أحمد حسين حيال
مديرية تربية بغداد
الرصافة الثالثة (العراق)

1- الملخص:

نحاول في بحثنا هذا كشف القيم التداولية التي تضمنتها الرسائل الحربيّة التي جمعها ابن حزم المنقري (ت212هـ) في مدونته (وقعة صفين)، والتي جمع فيها ما استطاع من مراسلات ومناظرات شعرية ونثرية في أثناء الحرب وقبلها،وتتحصل الرسالة قيمتها التداولية من تضمنها لمقاصد المرسِل ومراده ، ومعرفة المرسَل إليه بالمشتركات التخاطبية مع المرسل سواء أكانت معلومات مصاحبة لإنتاج الرسالة أم افتراضات مسبقة.

Abstract

In this research, we try to uncover the deliberative values contained in the war messages collected by IbnHazm al-Munqari (T 212H) in his blog (Sifin Post), in which he collected all his correspondence, poetry and prose during and before the warThe message receives its deliberative value from its contents for the purposes of the sender and its intended purpose, and the recipient's knowledge of the communication participants with the sender whether it is information accompanying the production of the message or presuppositions.

2- تقديم المدونة:

تُعد مدونة (وقعة صفين)، من أوائل المدونات التأريخيّة التي عُنيت بتدوين وقائع حرب صفين التي دارت أحداثها في أرض صفين[1]؛ بل هو أقدم نص معروف لدينا في هذه الوقعة، ويُعد المنقريّ في طبقة شيوخ الطبريّ (ت310هـ)[2]. سجل المنقريّ فيها معظم ما قيل في وقعة صفين التي حصلت بين جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (استشهد41هـ)، وجيش معاوية (ت60هـ)، وقد بدأها المنقريّ بداية دراميّة ناجحة؛ إذ ذكر في الرواية الأولى وصول الإمام علي بن أبي طالب إلى الكوفة قادماً من البصرة بعد انتهاء حرب الجمل ، قال: " لما قدم على بن أبى طالب من البصرة إلى الكوفة يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة مضت من رجب سنة ست وثلاثين، وقد أعز اللّه نصره وأظهره على عدوه، ومعه أشراف الناس وأهل البصرة، استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرافهم، فدعوا له بالبركة"[3].

وهذه البداية إيذاناً منه أن كل ما سيكون بعدها خاص بوقعة صفين، وقد دلّ على هذا ما نقله من أبيات شعر لبشر بن منقذ المعروف بالأعور الشني الذي يقول فيها[4]:

قل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء

وفرغنا من حرب من نقض العه د وبالشام حية صماء
تنفث السم ما لمن نهشته، فارمها قبل أن تعض، شفاء

فهذه الدعوة من أنصار الإمام لمهاجمة معاوية وطرده من كرسي الشام لم تكن اعتباطاً؛ وإنما سيقت لوجود قرائن عقليّة مترابطة وأدلة بيّنة واضحة على أن معاوية قد دق طبول الحرب وأذِن لها، ثمّ نلحظ أن الأحداث والوقائع في تلك الأيام كانت دليلة على أن الحرب ليس لها إلا اللقاء وتضرم نارها، ولاسيما أنّ شراراتها قد بدأت حينما أرسل أمير المؤمنين رسالة إلى معاوية يأمره فيها بترك ولاية الشام والتنحي عن إمارتها، وممّا جاء فيها قوله: "أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد ... فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ... فإن أحب الأمور إليَّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء. فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت اللّه عليك"[5]، هذا الأمر صار إعلاناً رسمياً بانطلاق الحرب .

وقد أخذت المقدمة الكاشفة لمقامات المعركة مساحة كافية لاستعراض البيئة التي مهدت للواقعة والظروف التي سبقت اللقاء الدامي بين الجيشين، فكان الغرض من هذا التقديم هو تبيان البيئة الاجتماعيّة والسياسية التي سبقت حرب صفين، والمقامات التي أنتجتها، وهي بيئة سيفاد منها قارئ الكتاب لمعرفة كثير من أحداث الواقعة، وهي كذا مفيدة للمنقري في إضفاء سمة المنهجية على مدونته.

3- أغراض الرسائل ومقاصده:

يسجل البحث تبايناً ملحوظاً في مقاصد الرسائل وأغراضها، مع طغيان الغرض الأساسيّ، الذي من أجله كتبت هذه الرسائل، والذي هو إقناع المرسل إليه بتغيير سلوكه من ذلك ما ورد في رسالة أمير المؤمنين لمعاوية، إذ قال: "ألا وإني أدعوكم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه صلى اللّه عليه، وحقن دماء هذه الأمة. فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظّكم. وإن أبيتم إلا الفرقة وشقّ عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من اللّه إلا بعداً، ولن يزداد الربّ عليكم إلا سُخطاً"[6]. فهذه الدعوة هي محاولة اقناعية موجهة للمتلقي (معاوية)؛ لتغيير سلوكه والعدول عن أفعاله السابقة والدخول مع أمر الجماعة التي اختارت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهذه المحاولة لا تستلزم التحقق بالضرورة، فالاقتناع لا يتوقف على دعوة المتكلم أو العمل على التغيير؛ بل يتوقف على رغبة المتلقي بالتغيير ومدى استعداده لنجاح الفعل الاقناعيّ.

ولم يغب غرض الإبلاغ عن هذه الرسائل كما في قول أمير المؤمنين في رسالته إلى معاوية ابن أبي سفيان؛ إذ قال: "إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول اللّه صلى عليه، وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً"[7]، فهذا النص يحمل مضامين إبلاغيّة يبين فيها أمير المؤمنين صفات ولاة الأمر الذين يحق لهم قيادة الأمة، وعليه فليس من حق معاوية وأمثاله التصدي لهذا الأمر.

وقد تضمّنت بعض هذه الرسائل غرضاً دعوياً، إذ كان الإمام علي عليه السلام يبعث رسائله إلى العمال على الأمصار الإسلاميّة، طالباً منهم مبايعته، وهذه الرسائل لم تكن حربيّة مباشرة؛ بل هي مقدمة للحرب، يجمع فيها أمير المؤمنين عامليه ويكتشف من منهم معه، ومن هو مخالف لأمره، ولا سيما أنها أرسلت بعد وقعة الجمل في البصرة، ومن هذه الرسائل ما بعثه إلى الأشعث بن قيس الكندي عامل أذربيجان، وقد ورد فيها: "أما بعد فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت اللّه ... وأنت من خزان اللّه عليه حتى تسلمه إلي ولعلي أن لا أكون شر ولا تك لك إن استقمت ولا قوة إلا باللّه"[8].

وهناك كذلك مضامين استفزازيّة كالهجوم على المرسل إليه، أو الوعيد، والتعديد كما في جواب معاوية عن رسالة أمير المؤمنين آنفة الذكر، إذ اقتبس بيت من قصيدة عمرو بن الأهتم[9]:

لَيسَ بَيني وَبَينِ قَيسٍ عِتابُ غَير طَعنِ الكُلى وَضَربِ الرِقابِ

فهو في اقتباسه هذا كسر فعل الإقناع ورفض الاقتناع، راداً بهجوم قوليّ يعكس تبييته لنيةالحربوإشعالهدونما عناية في مدياتها وما سينتج عنها.

يظل موضوع الحرب القائمة بين الطرفيّن هو المسيطر على الجو العام للرسالة، فكل محتوياتها تناقش ما يرتبط بأرض المعركة، نحو: حق المرسل بالسيطرة على زمام الأمور، ووجوب انصياع المرسل إليهكما في ما تقدّم، وقد نلمح موضوعاً آخر كما في رسالة معاوية للإمام علي التي يطلب منه فيها التوقف عن القتال وجعل الأمور على ما هي عليه، فقال: "وإنّا وإن كنا قد غُلِبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي. وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك عليّ، فأعطاني اللّه ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس"[10]. وإن رمنا إيجاد عنوان لموضوع هذه الرسالة وغرضها فإنه لا يخرج عن محاولة إيهام المتلقي وغشه وخداعه، وقد تبصرنا بهذا العنوان من خلال السيرة الكاملة للمتحاربين. وأن القصد الحقيقي لا يقف عند ظاهر قوله هذا؛ بل قصده الأساس هو السيطرة على زمام أمور المسلمين والصيرورة خليفة عليهم.

وقد يبتعد أحياناً مضمون الرسالة عن الحرب والمعركة، ويناقش قضايا دينيّة أخلاقيّة كرسالة الإمام في بداية الأحداث قبل أن تقوم الوقعة أو يحتدم الجيشان، إذ بعث برسالة إلى معاوية قال فيها:"إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك للّه رضا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه اللّه ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت في عزله عنه، إلا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك! والسلام"[11]، فهذه الحجج العقليّة المقدمة من الإمام تفرض على معاوية وجيشه النزول عند إرادة أمير المؤمنين؛ لأن الخروج عليه سيلحقه فساد وإفساد للشؤون الأمة. ومع هذا يظل الوصف الحربيّ ملاصقاً لها؛ لأنها تُعد مقدمة للحرب عاملاً مؤثراً في حركتها.

4- إفادة المتكلم من سياقات المقام في إيصال مقاصده:

يختار المتكلم البنية اللفظيّة الصادرة منه تبعاً للمعجم الذهني الذي يختزنه؛ وتظهر هذه البنية معبرة عن انطباعاته وقناعاته اتجاه قضايا المجتمع الذي يعيشه، ولا يتحدد السياق الذي نحن بصدد عرضه بالزمان أو المكان الذي قيل فيه الكلام؛ بل هو "جملة الموقف المتحرك الاجتماعيّ الذي يُعتبر المتكلم جزءاً منه، كما يُعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك ممّا له اتصال بالتكلم، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي، ليشمل كل جوانب عمليّة الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ والجغرافية والغايات والمقاصد"[12].

وللسياق أثر كبير في انجاح فعل التواصل بين المرسل والمرسَل إليه، ولا يمكن اختزال الرسالة من ظروف نشأتها المحيطة بها؛ وأهمية السياق في صياغة القول جعلت جاكبسون يعده من العوامل المكونة لكل سيرورة لسانية ولكل فعل تواصلي لفظي، فهو يرى أن "المرسل يوجه رسالة إلى المرسَل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة، فإنها تقتضي -بادئ ذي بدء- سياقاً تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضا "مرجع" باصطلاح غامض نسبياً) سياقاً قابلاًلأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون كذلك؛ وتقتضي الرسالة، بعد ذلك سنناً مشتركاً، كلياً أو جزئياً، بين المرسل والمرسل إليه (أو بعبارة أخرى بين المسنن ومفكك سنن الرسالة) وتقتضي الرسالة، أخيراً، اتصالاً، أي قناة فيزيقية وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه. اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه"[13]، وقد وضع مخطوطته الشهيرة التي وضحت العناصر التي لا يستغنى عنها في التواصل اللفظي.

وبهذا الفهم الواسع للموقف نجد أن أصحاب المراسلات الحربية أيدوا آراءهم ومواقفهم بجملة إحالات على مواقف زمنية، واجتماعية، وتاريخية أفادوا منها في بيان مقاصدهم وفي إيصال غايات كتاباتهم إلى الآخر، من هذا ما ورد في رسالة الإمام علي عليه السلام إلى معاوية؛ إذ قال: " لعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنّي أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم الشورى"[14].

فهذا المقطع من رسالة الإمام قد تضمن ذكراً لسياقات تأريخية، فقد ذكر حادثتين؛ الأولى: هي مقتل عثمان بن عفان، وهي الحادثة التي سيتكرر ذكرها كثيراً باختلاف زاوية النظر إليها، وزاوية النظر التي عبّر منها هي براءته من دم عثمان بن عفان, وقصد أمير المؤمنين من هذا العرض هو تدعيم موقفه الشخصي، وموقف جبهته، فالأمير لابد أن يكون سليم الجانب من أي شائبة، ولا يمكن أن يكون عرضة للاتهام وموقعاً للسهام الشبهة. والحادثة الأخرى التي عرضها هي (الطلقاء)، والقصد منه بيان حقيقة المقابل (معاوية)، والكشف عن ابطال حكومته الآن ومستقبلاً، وهو فيه إحالة على الحدث التاريخي المعروف؛ إذ حينما فتح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله مكة عنوة " خطب على باب الكعبة ثم قال بعد كلام: " يا معشر قريش! ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا: خيراً. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء... وكان فيهم معاوية ابن أبي سفيان"[15]، والغرض من إيراد هذه الحادثة شاهداً على عدم أحقية معاوية بالخلافة، وابطال دعاوى معاوية، وكشف زيغها أمام الجيشين. وفي اختيار هذين الحادثين -اللذين شهدهما كثير من الناس من أهل مكة أو المدينة أو حتى الشام الذين كانوا حاضرين في ذلك الوقت- عناية بالعقل الجمعيّ للمشاركين في الحرب، وقد اعتنى بحضور المتلقي عن طريق عدم اكتفائه بالسرد الدرامي ، بل صاحب هذا السرد ذكرُ الحقائق والوقائع التاريخيّة، فالمرويات " تحمل في طيها معلومات تظل تنقصها مكملاتها مما يحمله السياق المقامي من قرائن تفيد في جلاء المعنى وصفاء الصورة الدلالية."[16].

وقد مثّل قتل عثمان علامة فارقة في رسائل معاوية، حتى ذهب مثلاً فيقال للأمر الذي يُدعى له باطلاً: (قميص عثمان)، ولكن زاوية النظر اختلفت عن تلك التي عرفناها عند المرسل الأوّل (علي بن أبي طالب)، حينما كان يبعد التهمة عنه، حاول معاوية اثباتها مستعملاً وسائله كافة، التي منها تكرار الدعوة في كل مكان وزمان، فأخذ يبعث رجاله إلى قبائل العرب طالباً منهم الدعم عارضاً القضية عرض المسلمات، وقال في أحدى رسائله إلى أصحابه مبيناً سبب خروجه على أمير المؤمنين: "إنما نطلب بدمه [يقصد عثمان] حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب اللّه. فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب"[17]. وجعلها معاوية محور خروجه ولولاها لما وجد عذراً للخروج، وهو أمر تباين فهمه عند جمهور المتحاربين، الأمر الذي جعل من الفعل اللغوي فعلاً فاشلاً لم يحقق قدرته الإنجازية الكاملة؛ لأن أبرز شرط وضعه أوستن لتحقيق إنجازية الفعل هو "يجب في كل حالة مفترضة أن يكون الأشخاص المعنيون والملابسات المخصوصة جميعاً على وفق المناسبة والملاءمة حتى نستطيع أن نتمسك بذلك النهج المحتكم إليه في إنجاز الأفعال اللغوية بنجاح"[18] .

ومما يلحظ على النص السابق ذكره للشورى التي تكرر ذكرها غير مرة في رسائله باختلاف نسبتها، فمرة ينسبها الى المسلمين، وأخرى يعدها من خصوصيات قريش، من هذا ما ورد في رسالة الى أمير المؤمنين إذ قال: "أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الاسلام وخفت (معهما) لذلك أم المؤمنين فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا فإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين"[19].

ويبدو أن ذكره لحادثة تاريخية لم يكن طرفاً فيها ولم يحضرها هي محاولة منه لإقناع المتلقي الإيجابيّ أي التابع له المطيع لأمره، وهي محاولة غير نافعة لإقناع المتلقي السلبيّ أي غير المطيع له والمخالف لأمره، ومرة أخرى يعجز عن إنجاز فعل لغويّ ناجح من خلال تأويله للحوادث التاريخية تأويلاً ينسجم مع مراده من عرضها، وهذا ما لا ينسجم مع الخطاب

الاقناعي، يقول اوستن" قد تبين أننا لكي نفسّر ونعلل كيف يقع الغلط في الأحكام المثبتة لم نكتف بتركيز انتباهنا ، كما يقع عادة على قضية معلومة ، بل علينا أن ننظر في جميع الأوضاع التي صدرت فيها هذه العبارة... إذا أردنا أن نفهم العبارات الدالة على التنجيز"[20].

وقد استشعر بعض المتلقين لهذه الرسالة المقاصد الحقيقية من انتاجها، فأبطل سعد بن أبي وقاص، حجة المرسِل في الاستناد على هذه الشورى قائلاً: "أما بعد فإن عمر لم يُدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه غير أن علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه. وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره"[21].

وبالإضافة إلى هذه السياقات حاول طرفا الصراع الاستناد إلى حال المسلمين؛ لتدعيم دعواهم ولبيان حالهم وموضعهم في البيئة الاجتماعيّة والدينية، فهذا معاوية في كتابه لأمير المؤمنين يعرض أحوال المسلمين بعد وفاة النبي قائلاً: " إنّ اللّه اصطفى محمّدا بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه، واجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده اللّه بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في إسلامه وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة من بعده، وخليفةخليفته، والثالث الخليفة المظلوم عثمان"[22]، وهذا العرض لأحوال المسلمين خاضع لمراد المتكلم وبحسب رغبته في كسب الجمهور المتلقي، ممّا استدعى أمير المؤمنين لرد هذا القول عليه ورفضه والكشف عن أحوال المسلمين بعد وفاته كما وقعت وليست كما ادعى معاوية، إذ قال: " إن محمداً صلى اللّه عليه وآله لمّا دعا إلى الايمان باللّه والتوحيد كنّا أهل البيت أوّل من آمن به، وصدّق بما جاء به... فأمّا من أسلم من قريش بعد، فإنّهم ممّا نحن فيه أخلياء، فمنهم حليف ممنوع أو ذو عشيرة تدافع عنه، فلا يبغيه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلف"[23]، بهذا ردّ أمير المؤمنين قول معاوية مستنداً إلى أحوال أهل البيت الذين هم أولى بالنبي من غيرهم، فهم من تحمل الأذى وصبر على البلاء، وعُزلوا من مخالطة الناس، وما هذا إلا لأنهم أهله وخلفاؤه.

ولم يكن التناقض الحاضر بين الصورتين إلا بسبب التناقض في انتماءات المتكلمينومتبنياتهم الفكريّة والعقائديّة، فكل منهم يخضع عباراته لانتماءاته الدينية، والاجتماعية.

5- أثر اعتقادات المتكلم في صياغة التركيب:

تعد الغايات والمقاصد التخاطبية (إبلاغيه وإفهاميه) أساساً مهماً في تصدير المتكلّم كلامه؛ وهذه الغايات تتأطر بدوافع نفسيّة يحاول فيها المتكلّم إظهار عقيدته ومتبنياته الفكريّة وما يؤمن به فالنص "يتأسس على مقاصد توظف فيها اشارات استجابة لنسق يتطلب بناء الانسجام من جهات العلاقات الخفية التي تسهم في تنظيمه، ويؤلف عالمه المتخيل تأليفاً يكفل وحي الدلالات"[24]، وهذه المقاصد تباينت بحسب تباين معتقدات المتكلمين فاتخذت صوراً يمكن اجمالها بحالات "الاعتقاد والخوف والأمل والحب والكراهية والبغض والميل والنفور والشك والتعجب والابتهاج والعجب والحزن والقلق والغرور والندم والأسى والأسف والشعور بالإثم والفرح والغضب والارتباك والقبول والصفح والخصومة والنزوع والتوقع والاعجاب والازدراء والاحترام والسخط والقصد والتمني والرغبة والتصور والتخيل والشهوة والاحتقار والحقد والرعب والسرور والاشمئزاز والطموح واللهو وخيبة الامل"[25]، وقد حضرت أغلب هذه المقاصد في الرسائل قيد الاجراء، فالمرسِل والمرسَل إليه كثيراً ما كانا يصيغان تراكيبهم اللفظيّة؛ تبعاً لعقيدتهم ولما ينتجه الموقف التخاطبي من دوافع نفسية تفرض على المتكلم صياغة خاصة للتراكيب واختياراً معيناً لألفاظه، من هذا ما ورد في رسالة أمير المؤمنين إلى معاوية: " بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام على من اتبع الهدى، فإني أحمد اللّه إليك الذي لا إله إلا هو"[26]. إنّ وسم أمير المؤمنين بأنه عبد اللّه دلالة على ما ارتكز في نفسه من قيم دينية اعتقادية؛ فالأساس عنده عبادة اللّه والالتزام بأحكامه وهيإشارة إلى أنّ العلاقة بين الناس في نظره تنبني على أساس العلاقة باللّه، فقد ربط الفعل اللغوي الذي أنجزه بالواقع النفسيّ والعقديّ له، وهذا ما ألمح إليه الباحثون اللسانيون في ما بعد؛ فقد قرر

فندريس أن كل فعل كلامي يحمل أثراً انفعالياً، فالفعل الكلامي عنده عبارة عن تعبير خاص ينتج انفعالاً معيناً، فلا يعطي شخص ما المعلومات ذاتها بطريقة واحدة إطلاقاً[27].

وممّا يلحظ على صيغة السلام التي خاطب بها أمير المؤمنين معاوية أنه كان دائماً ما يقول (سلام) أو (السلام)، وقد تغيرت هذه الصيغة مرة واحدة في الرسائل بينهما، فقال (سلام عليكم)، والسبب في هذه المرة أنه وجه كلامه إلى (معاوية وإلى من قبله من قريش)[28]، أضف إلى هذا ما قرره من خروج معاوية عن الهداية ودخوله في دائرة الضلال الشيطاني ، فهو لا يؤمن بإيمانه وتقواه وورعه لذا ختم رسالته بقوله السلام على من اتبع الهدى وفيه إحالة على قوله تعالى [وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ] (طه47) وهو القول الذي صدر من موسى الى فرعون بأمر اللّه، فاختار الإمام كلماته بحسب الجو العام الذي صيغت من أجله؛ لأن "الكلمات كالماء الذي يخضع لونه للون انائه، وإنما هي كالحرباء التي تتلوّن بلون المكان الذي تحل فيه؛ أي إن الكلمة أشبه بالحرباء تمتلك امكانات معينة، كل منها يبرز في موضعه المناسب، وليست كالماء الذي لا يملك شيئاً من تلك الامكانات وإنما يخضع لما يفرض عليه من الخارج"[29].

وكذلك يتبين هذا الأثر في قول أمير المؤمنين لمعاوية: " ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية، أو ولاة لأمر هذه الأمة بغير قدم حسن ولا شرف سابق على قومكم"[30]. فتركيب الاستفهام المجازي عكس اعتقاد المتكلّم بأن معاوية ليس أهلاً لسياسة الرعية ولا يحق له أن يكون من أهل الحل والعقد؛ لما حمله تاريخه الشخصي وتاريخ عائلته من خروج عن أوامر الدين ونواهيه ولما سجلته أفعاله من خروج على نواميس الدين.

وتظل عقيدة أمير المؤمنين هي الواعز لتكوين عباراته وألفاظه، ويتضح هذا في مقارنته بين اختيار الناس والاختيار الإلهي، وأنه لا يحق للناس الوقوف بوجه هذا الاختيار أو الاعتراض عليه فقال: "واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسدونا وامتنوا به علينا ولكنه قضاء ممن امتن به علينا على لسان نبيه الصادق المصدق"[31]، ولا تنتهي هذه الرسالة إلا وهو يؤكد على انتمائه للرسول وإيمانه به فهو عنده الصادق المصدق، وفي هذا الوسم للنبي إحالة ضمنية الى الوعد الذي وعده النبي لأمير المؤمنين من أنه سيقاتل معاوية وجماعته وقد مر ذكره.

وقال معاوية ابن أبي سفيان جواباً عن كتاب أمير المؤمنين: " أما بعد فدع الحسد فإنك طالما لم تنتفع به، ولا تفسد سابقة قدمك بشره نخوتك"[32]. يحاول معاوية في رسالته هذه أن يلبس لباساً غير لباسه، ويتقمص شخصيةً أخرى، إذ تحول إلى إنسان ناصح واعظ يحاول جهده لثني أمير المؤمنين عن مواقفه، ونستطيع تكشف دواخل النفس من ظواهر الكلام، ومحاولة التظاهر بمظهر شخصية أخرى أو لبس لبوسها والتصرف على هيأتها فتحوله إلى إنسان صالح آمر بالمعروف ناه عن المنكر، ولكن هذا التلون تكشفه طيات اللسان؛ لأن "القول دليل على ما في الذهن وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له، ولو لم يكن وجود في الأعيان لم تنطبق صورة في الأذهان ولم يشعر به الإنسان ولم يعبر به باللسان"[33]. فوسمه أمير المؤمنين بالحسد، وهو عالم كما الناس أن هذه الصفة بعيدة جداً عنه، جعل المتلقي يتكشف أن الحقد والبغض هو الذي يختار الألفاظ وهو ما صنفه جيرار جينيت ضمن فرضيتين؛ الأولى: فرضية الكشف اللاإرادي عن طريق فلتات اللسان الكاشفة لشخصية لا واعية للمتكلم ، والفرضية الثانية: هي تظاهر المتكلم تظاهراً إرادياً بشخصية مختلفة عن شخصيته الحقيقية[34].

وإذا رمنا أن نترك المراسلة بين القيادة وننتقل الى المراسلةبين الجنود فنجد أن رسالة محمد بن أبي بكر، أكثر رسالة يظهر فيها تأثير العقيدة في صياغة التركيب.فمداليل الكلمات تبرّز عقيدة المتكلم وتنبئ عن متبنياته؛ فهو قد صاغ عباراته تبعاً لمعتقده وما رسخ في ذهنه ونفسه، ومما قال في رسالته : "من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي بن صخر. سلام على أهل طاعة اللّه ممن هو مسلم لأهل ولاية اللّه"[35]. تبرز اللغة الانفعالية واضحة جلية في وصف المتكلم للمخاطب بأنه غاوٍ

أولاً، وهي الصفة التي اعتقدها في مخاطبه؛ فمحمد مؤمن بأن معاوية إنسان بعيد عن الهداية مناوئ للحق؛ ولذا فلا يمكن أن يكون مثله في دائرة الهداية أو مستحقاً لها، أو من الممكن أن تحيط به عناية اللّه.

وقد شحن المتكلم ألفاظه بطاقة انفعالية عالية؛ وذلك حينما استعمل اسم والد معاوية الصريح (صخر)، ولم يُكنِه، علماً إن كناية أبي سفيان هي التي تعارف عليها في النداء لا الاسم الصريح وهو الأمر الذي عليه عامة العرب، حتى من تخاصم مع معاوية كأمير المؤمنين، ولكن لمّا امتلأت نفس محمد غيظاً وبغضاً على معاوية رفض الكناية وعدل إلى التصريح وهو تعريض ضمني باستحقار هذا النسب، وهو ما كان يكرره دائماً وفي أي مناسبة أو مقام يُذكر فيه معاوية وأهله، وبالمقابل كان دائماً ما يمدح أمير المؤمنين ويفتخر أنه من مريديه والمقربين لهمن هذا قوله: "فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات الأزل ومقامات الروع. حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت. وهو هو المبرز السابق في كل خير. أول الناس اسلاماً، وأصدق الناس نية، وأطيب الناس ذرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم، وأنت اللعين ابن اللعين ... فكيف -يا لك الويل- تعدل نفسك بعليّ"[36].إن النظر في استعمال التكرار للضمير المنفصل أنت وهو هو على ما فيه من قوة احالية، يخلق جواً من التقابل المعنوي بين الاثنين، وقد جمع في تكرار هذا الضمير صورتين متقابلتين مبالغ فيهما الأولى صورة معاوية المستحقرة الدنيئة، وكأني أراه -محمد بن أبي بكر- قد قطب حاجبيه واشمأز حال نطقه بالضمير المؤكد، والأخرى صورة أمير المؤمنين الرفيعة الشأن التي يؤطرها الصدق والوفاء والإخلاص والالتزام بالقيم الدينية وهما صورتان غير قابلتين للتساوي أو التعادل.

6-مقاصد الإخبار والاستخبار:

الإخبار هو نقل الخطاب أو محتوى الخطاب بما يتضمنه ذلك النقل من سبل إبانة عنه، ولما كان الإخبار نقلاً للخطاب أو محتواه كان بذلك إخباراً عنه واعلاماً به، والإبلاغ حين يرتبط بالكلام يفهم منه حدوث علاقة بين متكلّم ومخاطب يكون مصدرها أحدهما بفعل الخبر أو الاستخبار أو بحركة أو إشارة أو حال من الأحوال ترجع لأحدهما أو لكليهما أو لغيرهما لداع من الدواعي، ويفترض في هذه العلاقة أن" تكون مبينة حتى يتمكن المتكلّم من الإفصاح عمّا في ذهنه ونفسه ممكّناً مخاطبه من مراده"[37]، وقد ميّز سبيربر وولسون بين نوعين من المقاصد، هما[38]:

الأول: القصد الإخباري: الذي يكمن في رغبة المتكلّم في إبلاغ المخاطب المحتوى القضويّ، وينظر التداوليون الى هذا النوع من المقاصد بوصفه قصداً لتوليد توجهات معينة لدى المخاطب تجاه قضايا معينة.

الثاني: القصد التواصلي: وهو أن يكون القصد الإخباري معروفاً ومعلوماً لدى المخاطب، فمجرد إخبار المخاطب بقصدك الإخباري لا يكفي تماماً لإنجاز عملية التواصل.

ويبني المتكلّم عملية الإخبار على أساس المقاصد الكلامية القارة في ذهنه، ومراجعة الرسائل الحربية تبين هذه المقاصد من خلال السياقات الواردة فيها. ومن صور الإخبار ما يقصد به التواصل بين المتراسلين ومنه قول أمير المؤمنين في رسالة الى جرير: "إني أخبرك عن نبأ من سرنا إليه من جموح طلحة والزبير عند نكثهم بيعتهم وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف ... فاسأل عمّا بدا لك"[39] ، فكان قصد الإخبار هنا هو التواصل مع المخاطب، والاستخبار عن مستوى تفاعله مع الخبر الواصل له، فلم يكن ذكر الحدث التاريخي والفعل الذي قام به أمير المؤمنين تجاه طلحة والزبير مجرد سرد لخبر يراد به الإعلام، بل كان الذكر لإيصال معلومة للمخاطب ربما لم يكن على علم سابق بها، أو علم بها ولكن بطريقة مغلوطة القصد منه التأثير على جرير، ولما أخبر أمير المؤمنين، أكد على فعل التواصل بقوله "اسأل ما بدا لك" ليزيل بهذا القول كل عملية استفهام كانت تدور في ذهن المخاطب أو الجماعة القريبة منه وليكون الفعل اللغوي مقنعاً للمخاطب، ويحصل به الاقناع وليس الإذعان للأوامر فحسب وهو من المقاصد العامة التي بني عليها الخطاب العلوي الشريف، فأمير المؤمنين لا يعتني بفعل الإذعان والإقرار من الآخر إن لم يكن على قناعة تامة، وهذا الفعل السلوكيّ يختزنه أمير المؤمنين في ذهنه ولا يفرق بين المخاطبين في ضرورة حصول فعل الاقناع قبل الإقدام، بعيداً عن الترغيب أوترهيب.

وبالبحث في متون الرسائل نجد حضور قصد آخر من مقاصد الإخبار، وهو الإخبار من أجل التأثير في المخاطب وتغيير قناعاته أو سلوكه، من هذا ما ورد في رسالة معاوية لشرحبيل، والتي جاء فيها: " إن هذا الأمر الذي قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة، فسر في مدائن الشام، ونادِ فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه"[40]، فالأمر الصادر من معاوية الى شرحبيل، أخذ مأخذ الخبر لأنه يحمل فعلاً اعلامياً لم يكن المخاطب على علم به، وقد أضاف معلومة جديدة له والقصد منه التحرك لتحشيد الجماهير واخبارهم بأن أمير المؤمنين هو من قتل عثمان، وعليه يجب على الأمة أن تتحرك في سبيل الاقتصاص من القاتل. هذا الفعل الاخباري اتخذ طابع التسلسل الزمني والمكاني والخبري، فالخبر الصادر من معاوية وصل بعد مدة من الزمن الى شرحبيل، ثم انتقل من شرحبيل الى الجماعة التي آمنت بمعاوية ووقفت معه، وينتقل من مكان الى مكان. وهو بهذا يغير آلية نقل الخبر فبدأ الخبر بالقرطاس ثم انتقل الى العملية الشفاهية المباشرة، وهذه السلسلة من النقل الزماني والمكاني والخبري، كانت المقاصد وراءها هي تكوين جماعة تؤمن بما يؤمن المرسل، تقبل ما يقبل وترفض ما يرفض. كل هذا القصد خلق تأثيراً سلوكياً في المتلقي، ولا يتطلب هذا التغيير تغييراً ذهنياًاقناعياً، فقصد المرسل ليس اقناع المتلقي بقضيته بقدر ايجاد صف من المؤيدين المناصرين له وبأي صورة كانت سواء ترهيبية أم اغرائية أماقناعية. وقد صار القصد التخاطبي هنا قصداً مزدوجاً، أي قصد اخبار محتوى معين، وقصد انجاز هذا القصد نتيجة معرفة المخاطب به.

وربما يراد من الإخبار التحذير، الذي هو فعل تواصلي يراد منه أن يتواصل المخاطب مع المتكلّم ويستجيب لما يعرضه عليه. من هذا ما ورد في رسالة أمير المؤمنين الى عبد اللّه بن عامر، إذ قال: "إن خير الناس عند اللّه عزّ وجل أقومهم للّه بالطاعة فيما له وعليه وأقولهم بالحق ولو كان مراً، فإن الحق به قامت السماوات والأرض ولتكن سريرتك كعلانيتك"[41]، ويلتقي في فعل التحذير جانبان من جوانب التخاطب، هما الجانب التبليغيّ والجانب التهذيبيّ، فالمتكلّم يصدر تحذيره للمخاطب؛ مبلغاً إياه بالعواقب وخواتم الأمور بأسلوب أخلاقي مهذب يتأطر بالمعرفة المسبقة للمخاطب بصدق قول المتكلم "أمير المؤمنين" ليسير الفعل اللغوي على مبدأ التصديق الذي هو من مبادئ التخاطب الأساسية، وهو المبدأ الذي يتأسس على مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل للكلام، وقد يترتب على هذا المبدأ أن "المتكلّم متى تبيّن حقيقة قصده من قوله، أثمر عنده هذا التبين نتيجتين تقوم إحداهما في تعيُّن وظيفته العملية أو قل مسؤوليته الأخلاقية، وتقوم النتيجة الثانية في صيانة قوله عن اللغو بجعله يعمل في إفادة المخاطب المعنى المقصود منه"[42].

إن فعل التحذير تضمن نصحاً وارشاداً غير مبني على رغبة المخاطب وموافقته، فالمتكلّم لم ينتظر موافقة المخاطب على النصح والتحذير بل صدّر التحذير والإرشاد مباشرة من دوافع دينية أخلاقيّة، فتوحيد الباطن مع الظاهر قطع لمسارات النفاق والحقد والكره، وهي الصفات المذمومة ديناً وخلقاً.

7- استعمال المغالطة للتأثير في المتلقي:

بالإمكان تحديد مصطلح المغالطة اللغوية بأنها: "الحجة التي تبدو في ظاهرها صحيحة، ولكنها غير ذلك في الحقيقة"[43]،وقدم الفيلسوف الانكليزي جون لوك تصوراً للحجج التي يستعملها المتكلم في المغالطات، فكانت على ثلاثة حجج[44]:

- حجة الالتجاء الى السلطة، ويلجأ إليها المتكلم حينما يفقد البينة والدليل؛ لذا سميت حجة مثبتة، وحينها لا يجرؤ المتلقي على رفض هذه الحجة لما تملكه السلطة من سطوة وقسوة.
- حجة الجهل، وتتمثل هذه الحجة بعدم قدرة المتلقي برد الحجة المرعبة لا لصدقها، بل لعجزه هو، فهو لم يجد دفاعاً ناجحاً لإثبات رايه.
- حجة الشخصية، تتأسس على التعرض لشخصية المتلقي والهجوم على صفاته الشخصية ووسمه بصفات كالغباء، أوالغباء، أو الخداع، أو الغش.

وقد تجلّت مسالك المغالطة واضحة للقارئ في كثير من رسائل معاوية وأصحابه، نورد منها على سبيل المثال ما ورد في رسالة معاوية الى أهل المدينة: "إن علياً قتل عثمان. والدليل على ذلك مكان قتلته منه، وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا قتلته فنقتلهم بكتاب اللّه، فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. وأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم"[45]. فيؤسس معاوية حجته في حربه مع أمير المؤمنين على واقعة تاريخية "مقتل عثمان بن عفان"، وهي واقعة معروفة لدى أهل المدينة أكثر من غيرهم؛ فهم عاصروا الواقعة وشاهدوها، فليس معاوية بأعرف بها منهم ولكنه حاول أن يغير قناعاتهم في سبيل انجاح مقصده، وتجييش أهل المدينة على أمير المؤمنين، وهي المغالطة التي لم تنجح وكانت مكشوفة للمتلقين، والمغالطة الأخرى الواردة هي عدم طلبه للخلافة وهي مغالطة عمد لإدراجها في رسالته لأنه فقد البينة والدليل، فهو لا يحتكم الى مبدأ البينة والدليل في تصرفاته وعلاقاته مع الآخر، بل إن المبدأ السائد في تصرفاته وعلاقاته مع الآخر هو مبدأ السلطة والسطوة والسيطرة ، وقد وضعهما بديلاً للدليل والبينة العقليان وهذا أساس المغالطة، " فيقع المرء في مغالطة الاحتكام الى السلطة عندما يعتقد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها إلا سلطة قائلها"[46] .

ولم يكن معاوية هنا يبحث عن اقناع المتلقي بقدر عنايته برضوخه لأمره والسير في ركابه، فهو يغالط المتلقي؛ ولا يعتني بصدق المقال وكذبه؛ ويتكئ على هذه المغالطة في سبيل تحقيق "النجاح في الأغراض الجمهورية، ولذلك لا يشعر أن حدود المغالطة التي يلج عوالمها يمكن أن تتعارض مع التصور الأخلاقي للشعر فالغاية تبرّز الوسيلة، وشرف الغاية بنفي كل ريبة تقترن بالمغالطة في هذا المجال"[47].

ومن رسالة معاوية الى عبد اللّه بن عمر جاء فيها: " أما بعد فإنه لم يكن أحد من قريش أحبّ الي أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك. ثم ذكرت خذلك أياه وطعنك على أنصاره فتغيرت لك، وقد هون عليّ ذلك خلافك على علي، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا-رحمك اللّه- على حق هذا الخليفة المظلوم"[48].فقد عمد معاوية في هذه الرسالة الى ما أسماه الفيلسوف الفرنسي جون لوك "حجة الشخصية" محاولاً التأثير على المرسل إليه؛ ليكسبه في جانبه في هذه المعركة، فقد ركز على قضيتين، الأولى: أن معاوية كان يرغب بأن يتسنم عبداللّه بن عمر خلافة المسلمين بعد عثمان بن عفان، وهو الأمر الذي يستبطن مدحاً وتعظيماً لشخصيته، ودليل احترامه، ولكنه سرعان ما عاد عن هذا التعظيم بعد أن علم أن عبد اللّه كان من المعارضين لسياسة عثمان في المدينة.القضية الثانية: الخلاف بين أمير المؤمنين وعبد اللّه بن عمر وهو خلاف لا يعدو أن يكون أكثر من سحابة صيف، الأمر الذي جعل معاوية في آخر خطابه يتوسل المعونة ويعمد الى إثارة عاطفة عبد اللّه بالإشارة الى مظلومية الخليفة المقتول.

ونلحظ أن هذه المغالطة تركزت في الأساس على ما يكتنزه عبد اللّه من صفات شخصية ومكانة اجتماعية وحاول المرسل أن يستفيد من هذه المكانة بكسبه الى جانبه في خروجه على أمير المؤمنين.

وقد عمد عمر بن العاص الى استعمال مغالطة مشابهة لهذه حينما بعث جواباً عن رسالة أمير المؤمنين ورد فيها: " أما بعد فإن الذي فيه صلاحنا وألفة ذات بيننا أن تنيب الى الحق، وأن تجيب الى ما تدعون إليه من شورى فصبّر الرجل منا نفسه على الحق، وعذره الناس بالمحاجزة"[49]. فقد حاول عمرو أن يرتدي جلباب المصلح ويتقمص دور المخلص في سبيل الخروج أمام المسلمين بصورة الباحث عن صلاح الجماعة وحفظ بيضة الإسلام، فهو يجد طريقاً لصلاح الأمة ويعرضه على أمير المؤمنين لقبوله، موحياً الى السامع أن ركون الإمام الى كلامه وموافقته على دعواه فيه الصلاح، وهذا القول يحمل ضمناً مغالطة كبرى تتبين من العودة الى أصل رسالة أمير المؤمنين التي ورد فيها: " لا تجارين معاوية في باطله، فإن معاوية غمض الناس وسفه الحق" ، فمراد عمرو هو قلب جهة الحق بعد أن وصف أمير المؤمنين معاوية بالباطل فأراد أن يدخل المتلقي المسلم العادي بمتاهة المفاهيم؛ ليتساوى عنده الطرفان فلا يجد فرقاً بين نصر معاوية أو الوقوف مع أمير المؤمنين. وهنا نلحظ أنه لا يمكننا تكوين معجم لغوي للفظ المغالط؛ بل إن المتكلم هو الذي يجعل كلامه ذا معنى صادقاً

من حيث الظاهر، ولكننا في حال البحث عن الحقائق المستنبطة في أقوالها نجد أن القول خال من الصدق وهو في مجمله سيق من أجل التاثير في قناعات المتلقي، فلو كانت العبارات نفسها قد صدرت من شخص غير عمرو لوجب علينا البحث مرة أخرى في السياقات المصاحبة لإنتاج الكلام؛ لنجد الكلام سيق على نحو المغالطة أم على الصدق.

ومن رسالة معاوية الى ابن عباس التيوردفيها:" أما بعد فإنكم يامعشر بني هاشم لستم الى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، حتى أنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن يكن ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها عدي وتيم، فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة. وقد وقع من الأمر ما قد ترى"[50]. استعمل معاوية مغالطة عمادها تغيير الحقائق والوقائع التاريخية وقلب الأمور، بحيث يتكلم وكأنه صادق في ما يقول، ويؤكد على أن دعواه هي دعوى مقررة عند عامّة المسلمين، لا لبس فيها، وهو في أثناء هذه المغالطة"يعمد إلى تحقير الخصم والتنقيص من قدراته والتشكيك في كفاءته ومصداقيته"[51]، فهو يتهجم عليهم لعلتين؛ الأولى: أنهم من أعداء عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وهذا العداء "بحسب معاوية" ليس خصيصاً به وبجماعته؛ بل هو عداء قبليّ خال من الروح الإسلاميّة، ويعتمد في فكرته هذه على مغالطة أساسيّة مفادها سكوت بني هاشم حينما وليَ الأمر قبيلة عدي وتميم، وهي إشارة لخلافة أبي بكر، وعمر ابن الخطاب، فلما سكتم في أيام خلافتهم وأطعتم أمرهما فلم اليوم تعترضون على حكومة بني أميّة، حتى وصل هذا الاعتراض الى قتلكم طلحة والزبير لا لسبب إلا لأنهم من أنصار عثمان بن عفان. والحقيقة بعيدة عن هذا، فبحسب متابعة الوقائع التاريخية نجد أن الخلاف بين المسلمين أيام خلافة عثمان بن عفان كان بعيداً كل البعد عن العلل القبليّة.

والعلّة الأخرى لهجومه على بني هاشم هي دعواه أنهم قتلوا طلحة والزبير؛ لأنهم كانوا من المطالبين بأخذ القصاص من قتلة عثمان، وهو ما لا يؤيده الكشف التاريخي؛ لأن المطالبة بدم عثمان كانت من مهام الخليفة الشرعيّ (علي بن أبي طالب)، وليس لأحد أن يدعي أنه وليّ الدم.

من هنا يتبين لناأن هذا التدوين للوقائع التاريخية استعمل استعمالاً محرفاً من قبل المرسل، والوقائع التي عرضها هي:

- الإساءة الى أنصار عثمان بن عفان.
- قتل طلحة والزبير.
- طاعة أبي بكر وعمر بن الخطاب.

والعودة الموجزة للوقائع التاريخية تكشف كشفا بيناً عن أن هذا العرض للأدلة هو عرض غايته تحريف الدليل، وهو الأمر الذي لم ينجح مع المرسل إليه؛ لما يمتلكه من معرفة بالوقائع التاريخية المذكورة، وبحقيقة المرسل وهذا العمل من معاوية يجعله شخصاً "يقوم بتلبيس الكذب صفة الصدق والباطل صفة الحق ... فقوام حجاجه سبل تمويهية وتغليطية الهدف منها ابطال كل ما يبتغي المجيب حفظه أو حفظ كل ما يستهدف السائل ابطاله عبر سوق الخصم الى الكذب والباطل، وغالباً ما يستند في ذلك الى مسالك تقوم على التحريف والتلبيس والتعتيم والكتمان والكذب والمكر وغيرها من المسالك التي تيسر له تحصيل ما يروم اليه"[52].

ومن رسالة معاوية الى أمير المؤمنين التي ورد فيها: "هل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة، وصلاح للأمة، وحقن للدماء، وألفة للدين، وذهاب للضغائن والفتن أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان، أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك، فيحكمان بما في كتاب اللّه بيننا، فإنه خير لي ولك، وأقطع لهذه الفتن. فاتق اللّه فيما دعيت له وارض بحكم القران ان كنت من أهله. والسلام"[53].

مثّل هذا القول من معاوية المغالطة اللغوية الكبرى التي استتبعتها مغالطة أفعالية؛ فعملية التحكيم التي حصلت بعد حين لم تكن سوى مغالطة فعلية بطلها مخادع وساذج: عمرو بن العاص المخادع الذي عرف كل فنون المغالطات والخداع، وأبو موسى الأشعري المؤمن الساذج الذي لا يجد في نفسه استفساراً عن مقاصد الأمراء وأفعال الحكام. وإذا تركنا هذه

المغالطة الأفعالية وعدنا الى أساسها وهي المغالطة اللغويّة نجد أن معاوية استعمل فيها أسلوب الاستفهام المستبطن للرجاء، ظاهراً طيبة وإيماناً عالياً في طلبه هذا. والسامع للمرة الأولى يأخذه العجب من كلامه معتقداً بصحة إيمانه وهذا أساس المغالطة إذ يظهر المتكلم عكس ما يستبطن، فما إن تجري الأمور بحسب ما خطط لها معاوية حتى تتكشف المقاصد المستبطنة للكلام، والتي أخفاها عن المرسل، وتتكشف حقيقة رغبته بأن يكسب الوقت؛ ليؤثر في الناس (المشاركين في القتال من كلا الطرفين)،وقد ساعده على تبني هذه الفكرة علمه بوجود من يرتجف قلبه في جيش أمير المؤمنين، علماً أنّها مغالطة مفضوحة عند المرسل إليه (الإمام علي)؛ ولكن المرسل نجح في التأثير في تغيير سلوك جماعة من جيش الإمام، وأصروا على الرضوخ إلى هذه الدعوة التي كانت تبعاتها ونتائجها مأساوية،فتشققت الأمة وانشق صف جيش الإمام بسببها.

8- الخاتمة:

1- أسهمت الرسائل في الكشف عن معتقدات المقاتلين في المعسكرين.

2- مُجمل الرسائل المسجلة في هذا الكتاب تمت بالمراسلة بين قادة الجيشين لاسيما أمير المؤمنين، ومعاوية، ولم تصدر رسائل من الجنود إلى بعضهم؛ ممّا يكشف عن البنية الثقافيّة للعقليّة الإسلاميّة في ذلك الوقت، فهي عقليّة تجعل زمام الأمور والتخطيط بيد الزعيم أياً كانت النتائج، وقد شذّ عن هذه القاعدة الخوارج الذين عارضوا زعامة الإمام لأكثر من مرة.

3- لم يقف سعي أصحاب الرسائل عند التأثير في قناعات المرسل إليه، بل تعداه إلى التأثير على السامعين الذين يصلهم فحوى الرسالة.

4- لم تنجح كثير من الرسائل في تحقيق هدفها الإقناعي؛ لتمسك المخاطبين بقناعاتهم المسبقة واصرارهم على موقفهم وغياب الرغبة الملحة في تغيير الموقف المتخذ من قبلهم سلفاً.

الهوامش:

[1] صفين موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربى بين الرّقة وبالس، وكانت وقعة صفين في سنة 37 في غرة صفر: معجم البلدان، : 5/ 98.

[2] وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقريّ (ت212هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجمل، بيروت1990م: (مقدمة المحقق) :هـ.

[3] وقعة صفين: 3.

[4] ديوان الأعور الشني بشر بن منقذ (القرن الأول الهجري)، صنعة وتحقيق: الدكتور ضياء الدين الحيدري، مؤسسة المواهب، بيروت، ط1، 1999م: 17.

[5] وقعة صفين: 29.

[6]المصدر نفسه: 151.

[7]المصدرنفسه: 150.

[8]المصدرنفسه: 20- 21.

[9]شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، تحقيق: سعود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984: 79.

[10]المصدرنفسه: 471.

[11]المصدرنفسه: 28.

[12]الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر العربي عند العرب، د. تمام حسان: 339.

[13]قضايا الشعرية: 27.

[14] وقعة صفين: 29.

[15]الكامل في التاريخ: 1/ 332.

[16]الأسس الابستمولوجية والتداولية : 304

[17] وقعة صفين: 63.

[18]نظرية أفعال الكلام العامة : 49.

[19] وقعة صفين: 74.

[20]المصدر نفسه: 70 – 71

[21]المصدرنفسه: 75.

[22]المصدرنفسه: 86- 87.

[23]المصدرنفسه: 90- 91.

[24] المعنى خارج النص، أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب ، فاطمة الشيدي، دار نينوى دمشق: 118.

[25]نظرية جون سيرل في القصدية: 85.

[26]المصدرنفسه: 108.

[27]اتجاهات البحث اللساني: 132.

[28]المصدرنفسه: 150.

[29]المعنى وظلال المعنى: 124.

[30]المصدرنفسه: 109.

[31]المصدرنفسه: 110.

[32]المصدرنفسه: 110.

[33]المقصدالأسنىشرحأسماءاللهالحسنى، أبوأحمدالغزالي (ت 505هـ)، القاهرة، مكتبةالجندي، 1968م: 10 -11.

[34]عودة الى خطاب الحكاية جيرار جينيت ترجمة محمد معتصم: 188.

[35]المصدرنفسه: 118.

[36]المصدرنفسه: 118- 110 .

[37]التبالغوالتبالغية نحو نظرية تواصلية في التراث، رشيد يحياوي: 22.

[38] نظرية الصلة أو المناسبة سبيربر وولسون، ترجمة: هشام إبراهيم عبد اللّه: 107- 116.

[39]وقعة صفين: 15.

[40]المصدرنفسه: 50.

[41]المصدرنفسه: 60.

[42] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن: 251.

[43]موسوعة البلاغة: 2/ 7.

[44]المصدرنفسه: 2/ 10.

[45]وقعة صفين: 63.

[46]المغالطات المنطقية: 85.

[47]مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي جابر عصفور، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ط5، 1995: 201.

[48]وقعة صفين: 71.

[49]المصدرنفسه: 111.

[50]المصدرنفسه: 414.

[51]تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، د. حسان الباهي (بحث): 813.

[52]موسوعة البلاغة: 2/ 820.

[53]وقعة صفين: 493.